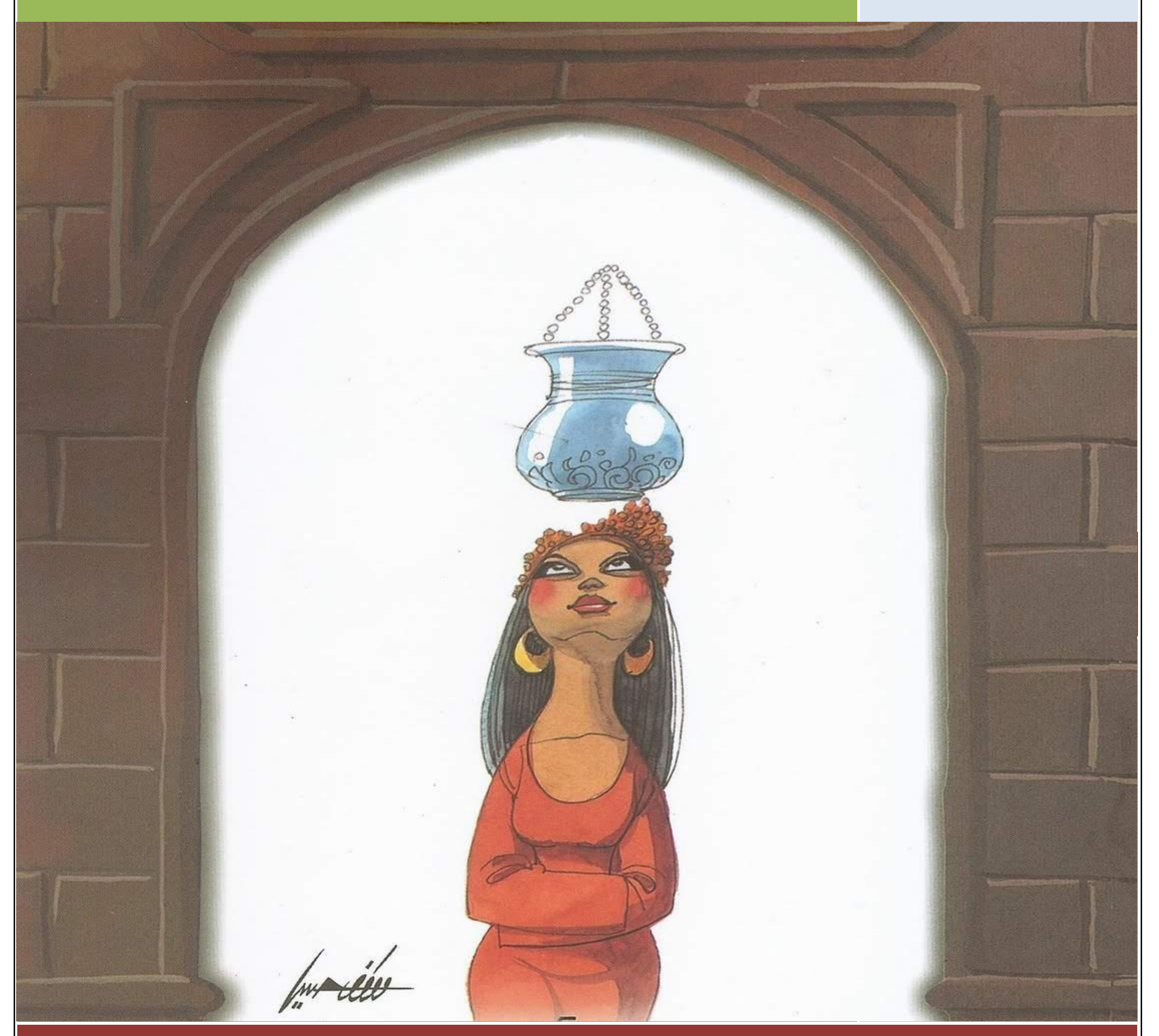
مدونة عصير الكتب

قنديل ام هاشم

يحيى حقى



WWW.BOOKMUST.BLOGSPOT.COM

جميع الحقوق محفوظة
مدونة عصير الكتب
عصير الكتب
www.bookmust.blogspot.com

يحيى حقي

قنديل ام هاشم

تم التحميل من عصير الكتب

WWW.bookmust.blogspot.com

1

كان جدي الشيخ رجب عبد الله إذا قدم القاهرة وهو صبي مع رجال الاسرة ونسائها للتبرك بزيارة اهل البيت، دفعه ابوه إذا اشرفوا على مدخل مسجد السيدة زينب وغريزة التقليد تغني عن الدفع – فيهوي معهم على عتبته الرخامية يرشقها بقبلاته، واقدام الداخلين والخارجين تكاد تصدم راسه . وإذا شاهد فعلتهم احد رجال الدين المتعالمين اشاح بوجهه ناقمًا على الزمن، مستعيذا بالله من البدع والشرك والجهالة، اما اغلبية الشعب فتبسم لسذاجة هؤلاء القرويين - ورائحة اللبن والطين والحلبة تفوح من ثيابهم وتفهم ما في قلوبهم من حرارة الشوق والتبجيل، لا يجدون وسيلة للتعبير عن عواطفهم إلا ما يفعلونه: والاعمال بالنيات .هاجر جدّي وهو شاب إلى القاهرة سعيًا للرزق؛ فلا عجب ان اختار لإقامته اقرب المساكن لجامعه المحبب. وهكذا استقر بمنزل للاوقاف قديم، يواجه ميضاة المسجد الخلفية، في الحارة التي كانت تسمى "حارة الميضة". [كانت] لان معول مصلحة التنظيم الهدام اتى عليها فيما اتى عليه من معالم القاهرة. طاش المعول وسلمت للميدان روحه ,إنما يوفق في المحو والإفناء حين تكون ضحاياه من حجارة وطوب! ثم فتح جدّي متجرًا للغلال في الميدان ايضًا. وهكذا عاشت الاسرة في ركاب "الست" وفي حماها: اعياد "الست" اعيادنا، ومواسمها مواسمنا، ومؤذن المسجد ساعتنا .

اتسع المتجر وبورك لجدّي فيه وهذا من كرامات ام هاشم فما كاد يرى ابنه الاكبر يتم

دراسته في الكتاب حتى جذبه إلى تجارته ليستعين به. واما ابنه الثاني فقد دخل الازهر، واضطرب فيه سنوات واخفق، ثم عاد لبلدتنا ليكون فقيهها ومأذونها. بقي الابن الاصغر - عمي إسماعيل اخر العنقود- يهيئه القدر واتساع رزق ابيه لمستقبل ابهى واعطر. لعله خشي في مبدإ الامر، عندما اجبره ابوه على حفظ القران ان يدفع به إلى الازهر، لانه يرى صبية الميدان تلاحق الفتية المعممين بهذا الهتاف البذيء :

-شدّ العمة شدّ، تحت العمة قرد .....

ولكن الشيخ رجب سلمه، بقلب مفعم بالامال، إلى المدارس الاميرية، وعندئذ اعانته تربيته الدينية واصله القروي، فسرعان ما امتاز بالادب والاتزان وتوقير معلميه، مع حشمة وكبير صبر. إن حَرِم التانق لم تفته النظافة. وهو فوق ذلك اكثر رجولة، واقوم لسانا، وافصح نطقا من زملائه "المدلعين" اولاد الافندية المبتلين بالعجمة وعجز البيان، فما لبث ان بذ الاقران وتلالات على سيمائه نجابة لا تخطئها العين، فتعلقت به امال اسرته .

اصبح، وهو لم يزل صبيًا ,لا ينادى إلا بـــ"سي إسماعيل" او إسماعيل افندي، ولا يعامل إلا معاملة الرجال. له اطيب ما في الطعام والفاكهة .

إذا جلس للمذاكرة خفت صوت الاب، وهو يتلو اوراده إلى همس يكاد يكون ذوب حنان مرتعش، ومشت الام على اطراف اصابعها. حتى فاطمة النبوية - بنت عمه، اليتيمة ابًا وامًا - تعلمت كيف تكف عن ثرثرتها وتسكن امامه في جلستها صامتة كانها امة وهو سيدها. تعودت ان تسهر معه كان الدرس درسها، تتطلع إليه بعينيها المريضتين المحمرتي الاجفان، واصابعها تعمل في حركة متصلة لا تنقطع في بعض اشغال "التريكو". من ذا الذي يقول لإسماعيل: تنبه إلى هاتين اليدين كيف دبت فيهما خلسة حياة غريبة وحساسية يقظة، ولمس متعرّف؟ الا تفهم الا تفطن إلى ان دليل اقتراب عاهة العمى في السليم هو ان تبدا يده في الإبصار ?

-قومي نامي يا فاطمة .

-لسه بدري ما جاليش نوم .

بين حين واخر تحيل دمعة مترقرقة شخصه إلى شبح مبهم فتمسحها بطرف كمها وتعود إلى تطلعها. الحكمة عندها تتمثل في كلامه إذا نطق .

ياالله! كيف تحوي الكتب كل هذه الاسرار والالغاز؟ وكيف يقوى اللسان على الرطانة بلغة الاعاجم؟ وكلما كبر في نظرها انكمشت امامه وتضاءلت. قد يعلق بصره بضفيرتيها فيتريث ويبتسم. هؤلاء الفتيات! لو يعلمن كم هي فارغة رؤوسهن !

إذا اوى إلى فراشه فعندئذ، وعندئذ فحسب، تشعر الاسرة ان يومها قد انقضى، وتبدا تفكر فيما يلزمه في الغد. كل حياتها وحركاتها وقف على توفير راحته. جيل يفني نفسه لينشأ فرد واحد من ذريته. محبة وصلت من قوتها إلى عنفوان الغريزة الحيوانيه. الدجاجة القلقة ذات النظرة المتجسسة الحذرة ترقد على بيضها مشلولة الحركة ذليلة العين ,كانها راهبة تصلي. هل هي هبات من فيض كرم؟ ام جزية جبار مستبد، إرادته حديد، له في كل عنق طوق، وفي كل ساق قيد؟ تعلق هذه الاسرة بولدها تعلق مسلوب الحريه والإرادة !فاين بريك جماله؟ جواب هذا السؤال عند قلبي. فما من مرة تمثلت فيها هذه الايام البعيدة إلا وجدته يخفق بذكراها، ويبدو لي وجه جدي الشيخ رجب وحواليه هالة من وضاءة ونور. اما جدتي السِت عديلة بسذاجتها وطيبتها، فمن السخف ان يقال إنها من البشر، وإلا فكيف إذن تكون الملائكة؟! ما ابشع الدنيا وابغضها لو خلت من مثل تسليمها وإيمانها !

2

سنة بعد سنة وإسماعيل يفوز بالاولويه، فإذا اعلنت النتيجة دارت اكواب الشربات على الجيران، بل ربما شاركتهم المارة ايضًا ,وزغردت "ما شاالله" بائعة الطعمية والبصارة، وفاز الاسطى حسن – الحلاق ودكتور الحي - بحَلوانه المعلوم، واطلقت الست عديلة بخورها وقامت بوفاء نذرها لام هاشم. فهذه الارغفة تعدّ وتملا بالفول النابت وتخرج بها ام محمد تحملها في مقطف على راسها: ما تهل في الميدان حتى تختطف الارغفة، ويختفي المقطف، وتطير ملاءتها، وترجع خجلة تتعثر في اذيالها غاضبة ضاحكة من جشع شحاذي السيدة، وتصير حادثتها فكاهة الاسرة بضعة ايام يتندرون بها .

وكذلك نشا إسماعيل في حراسة الله ثم ام هاشم. حياته لا تخرج عن الحي والميدان، اقصى نزهته

ان يخرج إلى المنيل ليسير بجانب النهر او يقف على الكوبري. إذا اقبل المساء، وزالت حدة الشمس، وانقلبت الخطوط والانعكاسات إلى انحناءات واوهام، افاق الميدان إلى نفسه وتخلص من الزوار والغرباء. إذا اصخت السمع وكنت نقي الضمير فطنت إلى تنفس خفي عميق يجوب الميدان لعله سيدي العتريس بواب الست – اليس اسمه من اسماء الخدم؟ – لعله في مقصورته ينفض يديه وثيابه من عمل النهار، ويجلس يتنفس الصعداء. فلو قيَض لك ان تسمع هذا الشهيق والزفير فانظر عندئذ إلى القبَة. لالاء من نور يطوف بها، يضعف ويقوي كومضات مصباح يلاعبه الهواء. هذا هو قنديل ام هاشم المعلق فوق المقام. هيهات للجدران ان تحجب اضواءه. يمتلئ الميدان من جديد شيئا فشيئا. اشباح صفر الوجوه منهوكة القوى، ذابلة الاعين، يلبس كل منهم ما قدر عليه، او إن شئت: فما وقعت عليه يده من شيء فهو لابسه. نداءات الباعة كلها نغم حزين .

-حراتي يا فول .

-حلي وع النبي صلي .

-لوبية يا فجل لوبية .

-المسواك سنَة عن رسول الله .

ما هذا الظلم الخفي الذي يشكون منه؟ وما هذا العبء الذي يجثم على الصدور جميعها؟ ومع ذلك فعلى الوجوه كلها نوع من الرضا والقناعة. ما اسهل ما ينسون! تتناول ايد كثيرة قروشا وملاليم قليلة. ليس هنا قانون ومعيار وسعر ,بل عرف وخاطر وفصالٍ وزيادة في الكيل او طبَة في الميزان. وقد يكون الكيل مدلسًا والميزان مغشوشا، كله بالبركة. صفوف تستند إلى جدار الجامع جالسة على الارض ,وبعضهم يتوسد الرصيف. خليط من رجال ونساء واطفال، لا تدري من اين جاءوا ولا كيف سيختفون، ثمار سقطت من شجرة الحياة فتعفنت في كنفها. هنا مدرسة الشحاذين. حامل كيس اللقم يثقل الحمل ظهره ينادي :

-لقمة واحدة لله يا فاعلين الثواب، "جاعان ."

والشابة التي تنبت فجاة وسط الحارة عارية او شبه عارية :

-ياللي تكسي الولية يا مسلم، ربنا ما يفضح لك ولية !

صوتها الصارخ يجذب الوجوه للنوافذ، وعيناها الساحرتان تستهويان المطلات، فتمطر عليها اكوام من الخرق ورث الثياب. في لحظة واحدة تذوب وتختفي، فلا تدري اطارت، ام ابتلعتها الارض فغارت .

وهذا بائع الدقة الاعمى الذي لا يبيعك إلا إذا بداته السلام واقراك وراءه الصيغة الشرعية للبيع والشراء .

ينقضي النهار فيودّع "كرش" الطرشجي بقية براميله، وتترك اقدام الخراط عملها اليومي وادواتها، لتعود بصاحبها إلى الدار. لا يزال الترام هنا وحشا مفترسًا له في كل يوم ضحية غريرة. يتقدم المساء ينعشه نسيم ذو دلال. تسمع من القهاوي ضحكات غضة واخرى غليظة "حشاشي". وإذا دلفت من الميدان إلى مدخل شارع مراسينا سمعت ضجيج السكارى في خمارة انسطاسي التي يلقبها اهل الحي بفكاهتهم خمارة "انستت". يخرج منها سكير هائج يتطوح ويتعرض للمارة :

-ورّوني اجعص فتوة .

-جتك لهوة يا بعيد .

-سيبوه في حاله دا غلبان .

-ربنا يتوب عليه .

اشباح الميدان الحزينة المتعبة يحركها الان نوع من البهجة والمرح، ليس في الدنيا همّ. والمستقبل بيد الله، تتقارب الوجوه بود ,وينسى الوجيع شكايته. ويبذر الرجل اخر نقوده في الجوزة او الكتشينة وليكن ما يكون :تقل اصوات اصطدام كِفف الموازين، وتختفي عربات اليد، وتطفا الشموع داخل المشنات ,عندئذ تنتهي جولة إسماعيل في الميدان. هو خبير بكل ركن وشبر وحجر، لا يفاجئه نداء بائع، ولا ينبهم عليه مكانه. تلفه الجموع فيلتف معها كقطرة المطر يلقمها

المحيط .صور متكررة متشابهة اعتادها، فلا تجد في روحه اقل مجاوبة، لا يتطلع ولا يمل. لا يعرف الرضا ولا الغضب. إنه ليس منفصلا عن الجمع حتى تتبينه عينه. من يقول له إن كل ما يسمعه ولا يفطن له من الاصوات، وكل ما تقع عليه عينه ولا يراه من الاشباح، لها كلها مقدرة عجيبة على التسلل إلى القلب، والنفوذ إليه خفية، والاستقرار فيه ,والرسوب في اعماقه، فتصبح في كل يوم قوامه. اما الان فلا تمتاز نظرته باي حياة .نظرة سليمة، كل عملها ان تبصر .

3

اقتربت المراهقة واخذ جسده يفور ,وكانه مرغم، فهو فريسة ممزقة بين قوي دافعة واخرى جاذبة. يهرب من الناس ويكاد يجن لوحدته. بدا يشعر بلذة غريبة في ان يندس بين المترددات على المسجد، ولا سيما يوم الزيارة. في هذا الزحام كان معنى اللباس عنده انه فواصل بين الاجسام العارية، يحس بها من صدمة هينة او احتكاك وامض. في وسط هذه الاجسام كان يشعر بلذة المستحم في تيارٍ جار لا يبالي نقاء الماء. روائح العرق والعطر لا تكربه، بل يتشممها بخيشوم الكلاب. لا يخلو يوم الزيارة من بعض الموسات فسيدي العتريس مامور ان لا يصدّ احدًا عن الساحة يفدن لتقديم شمعة للمقام او للوفاء بنذر، عسى الله ان يتوب عليهن، ويمحو ما على الجبين من مقدر مسطور. كان يراهن من قبل فلا يفطن إليهن، اما الان فهو يتبعهن وتعلق نظرته بهن وتتريث. واختص بانتباهه فتاة تاتي كل يوم زيارة .سمراء جعدة الشعر، رقيقة الشفتين. هذه هي نعيمة. تمتاز عن زميلاتها بصمتها وقوامها الاهيف. الكل يمشي مشية المتخاذل المنحل غير مكترث. اما هي، فكانما تسير إلى غرض ,مالكة كيانها وروحها. ذراعاها ممدودتان إلى جانبها، يواجهك باطن كوعها ولو دققت النظر لما وجدت من مومس إلا ذراعين مكسورتين من اثر السقوط، وإن كانت التنية عندها سر الخلاعة !

يبتسم إسماعيل عندما يرى الشيخ درديري خادم المقام وسطهن كالديك بين الدجاج. يعرفهن واحدة واحدة ويسال عن الغائبات، ياخذ من هذه شمعتها ,ويوسع لاخرى طريق صندوق النذور. يتبدل رضاه فجاة، فيزجرهن ويدفعهن دفعًا إلى الخارج. تاتي إليه ايضًا نسوة ورجال يسالونه شيئًا من زيت قنديل ام هاشم، لعلاج عيونهم او عيون اعزائهم. يشفى بالزيت المبارك من كانت بصيرته وضاءة بالإيمان. فلا بصر مع فقد البصيرة. ومن لم يشف فليس لهوان الزيت، بل لان ام هاشم لم يسعها بعد ان تشمله برضاها. لعله عقاب اثامه، ولعله هو لم يتطهر بعد من الرجس

والنجاسه، فيصبر وينتظر ويتردد على المقام. فإن كان الصبر اساس مجاهدة الدنيا، فإنه ايضـًا الوسيلة الوحيدة للاخرة .

في هذا الزيت مورد رزق متسع للشيخ درديري، ومع ذلك لا تظهر عليه اثار النعمة؛ فجلبابه القذر هو هو، وعمامته الغبراء هي هي. وماذا يفعل بنقوده؟! هل يكنزها تحت بلاطة؟ يتهمه زملاؤه انه يحرقها في الحشيش، بدليل سعاله الذي لا ينقطع وبدليل ما في طبعه من ميل "للقفش" والتنكيت. والحقيقة انه مزواج لا يمر العام إلا ويبني ببكر جديدة. عرفه إسماعيل من تردده على المقام، واعتاد ان يمر عليه في اغلب الليالي بعد صلاة العشاء ليتندر بحديثه. ومال الرجل للفتى واختصه بحنانه، هذا الحنان هو الذي حمله ذات ليلة على الإفضاء إليه بسر لم يفض به إلى احد غيره :

-تعرف يا سي إسماعيل ليلة الحضرة يجيء سيدنا الحسين، والإمام الشافعي، والإمام الليث. يحفون بالسيدة فاطمة النبوية والسيدة عائشة والسيدة سكينة .وفي كوكبة من الخيل، ترفرف عليهم اعلام خضر، ويفوح من اردانهم المسك والورد، ياخذون امكنتهم عن يمين الست وعن يسارها. وتنعقد محكمتهم وينظرون في ظلامات الناس. لو شاءوا لرفعوا المظالم جميعها ولكن الاوان لم يئِنْ بعد. فما من مظلوم إلا وهو ظالم ايضـًا، فكيف الاقتصاص له؟ في تلك الليلة، هذا القنديل الصغير الذي تراه فوق المقام، لا يكاد يشع له ضوء، ينبعث منه عندئذ لالاء يخطف الابصار. إني ساعتها لا اطيق ان ارفع عيني إليه. زيته في تلك الليلة فيه سر الشفاء · فمن اجل ذلك لا اعطيه إلا لمن اعلم انه يستحقه من المنكسرين .

كان إسماعيل غائب الذهن، يفكر في الفتاة السمراء التي تزم شفتيها. وانتبه إلى الشيخ درديري وهو يشير بإصبعه إلى القنديل: وسنان كالعين المطمئنة رات، وادركت، واستقرت. يضفو ضوءَه الخافت على المقام، كإشعاع وجه وسيم من ام تلقم رضيعها ثديها فينام في احضانها. وومضات الذبالة خفقات قلبها حنانا، او وقفات تسبيحها همسًا. يطفو فوق المقام كالحارس مبتعدًا تبجيلا. اما السلسلة فوهم وتعلة. كل نور يفيد اصطدامًا بين ظلام يجثم وضوء يدافع ,إلا هذا القنديل. فإنه يضيء بغير صراع! لا شرق هنا ولا غرب. ما النهار هنا ولا الليل، لا امس ولا غد .

وانتفض إسماعيل، لا يدري ما هذا الذي مس قلبه !

4

ووافقت المراهقة سنة البكالوريا . وخرج إسماعيل من الامتحان وقلبه واجف مفعم بالشكوك. واعلنت النتيجة فإذا به يفوز ولكن في ذيل الناجحين .

لقد كان امله ورجاء الاسرة كلها ان يدخل مدرسة الطب، فإذا بها تصده عن ابوابها. واقترب العام الجديد ولم يستقر على قرار. ليس امامه إلا ان يدخل مدرسة المعلمين إن شاء ,او ان يدرس للبكالوريا من جديد، ويضيع سنة من عمره، وكلا الامرين بغيض إلى نفسه. لم يكن الشيخ رجب باقل من ابنه قلقا وحيرة، ولكم توقع بعض معارفه ان يكتفي بتعليم ابنه إلى الحد الذي بلغه ويوظفه بالبكالوريا، إن لم يكن للمساعدة، فللتخفيف عنه. اه لو علموا كيف عقد الشيخ رجب نيته على ان يدفع بابنه إلى الصفوف الاولى!! يذهب هنا وهناك يسال عن حل. لا ادري من الذي قال له :

-لماذا لا ترسل ابنك إلى اوربا ؟

بات الشيخ رجب ليلته يتقلب على جنبيه .

علم ان هذا الحل سيكلفه من عشرة إلى خمسة عشر جنيهًا في الشهر، غير ما يلزم لابنه في اول الامر من نفقات الطريق وثياب تقيه برد الشمال؟ ايفارق ابنه؟ وهل ترضى امه؟ ام سيقف حنانها في سبيل مستقبل إسماعيل؟ وهل يقوي على دفع هذا المبلغ بانتظام كل شهر؟ إنه لو فعل لما بقي للاسرة كلها إلا ما تعيش به على الكفاف والشظف. وإلى متى؟ ست سنوات او سبعًا ,والزمان قاس يدور دورة عكس. كما سمع اذان العشاء سمع اذان الفجر، ثم اخذته غفوة هتف به خلالها صوت رقيق :

-توكل على الله ...

استيقظ من نومه وقد عقد عزمه. وفهمت الام ان لا مهرب من الفراق، فرضيت صامتة وإن لم ينقطع بكاؤها. إلى اين ?بلاد برة! كلمة لها رنين وسحر، تتسلل كروح مبهمة لا يطمئن لها، إلى المنزل الذي لا تنقطع فيه تلاوة القران، وحيث الشرع هو الحق والعلم جميعًا. وتوت هذه الروح

في ركن صغير من الدار وغطت راسها وتمطت. ونامت منتصرة قريرة العين. "بلاد برّه!" ينطق بها الاب كانها إحسان من كافر لا مفر من قبوله لا عن ذلة، بل للتزود بنفس السلاح. اما الام، فمنذ الان تركبها رعدة المحيط وتاخذها رجفة البرد. تتصور (بلاد بره) في نهاية سلم عالٍ ينتهي إلى ارض تغطيها الثلوج، ويسكنها اقوام لهم حيل الجن والاعيبهم. اما فاطمة النبوية فقلبها واجف تسمع ان نساء اوربا يسرن شبه عاريات وكلهن بارعات في الفتنة والإغراء. فإذا سافر إسماعيل، فلا تدري كيف يعود إن عاد !

وجمع الاب كل ما استطاع جمعه من مال، وباعت الام حليها، واشتريت تذاكر السفر والملابس الثقيلة التي تقي من برد اوربا، واقترب موعد السفر وحل الوداع .

واجتمعت الاسرة صامتة حزينة. قلوب خافقة، وعيون دامعة. وانشا الاب يقول لابنه :

-وصيتي إليك ان تعيش في "بلاد برّه" كما عشت هنا، حريصًا على دينك وفرائضه، وإن تساهلت مرة فلن تدري إلى اين يقودك تساهلك، ونحن يا بني نريدك ان ترجع إلينا مفلحًا لتبيض وجوهنا امام الناس. انا رجل قد اوشكت على الكبر، وقد وضعت كل امالنا فيك وإياك ان تغرك نساء اوربا، فهنّ لسن لك وانت لست لهنّ .

ثم صمت الابَ قليلا وعاد يقول :

-واعلم ان امك وانا قد اتفقنا على ان تنتظرك فاطمة النبوية ,فانت احق بها وهي احق بك. هي بنت عمك وليس لها غيرك. وإن شئت قرانا الفاتحة معًا يومنا هذا، عسى ان يصحب سفرك البركة واليمن .

لم يسعه إلا القبول. فوضع يده في يد ابيه، وقرا الفاتحة، بينهما ام تبكي، وفتاة حيرى بين الاسى والفرح .

كان إسماعيل يعلم ان هذه الفاتحة ستاتي في يوم، ولكنه لم يتوقعها في تلك الليلة. فلقد نشا مع فاطمة النبوية اخوين، وقلما نظر إليها كما نظر إلى فتاته السمراء .

قرا الفاتحة وهو شارد اللب. إرضاء لابيه، وقلبه يقول له: "احفظ عهدك!" فيجيبه: "لماذا؟ لماذا؟!" كل هذه اشياء غامضة، لانه حتى اليوم ما يزال طاهرًا عفيفا، لم يقترب من امراة. وإنه لكاذب وإسماعيل لا يكذب إذا انكر انه جوعان إلى فتاته السمراء، إلى النساء جميعًا، ولا سيما اخيرًا: إلى نساء اوربا .

5

وخرج إسماعيل يودع بعض اصدقائه، ثم انتهى إلى الميدان وقد اقترب الغروب. تتلقف اذانه ما امكنها من نداءات الباعة التي الفها، وخيل إليه ان في الميدان حركة غير التي عهد. كان القوم اصبحوا اسرع مشية. ما لهم لا يلوون على شيء ?افليست الحياة إلا سباقا؟ كم ودّ لو وقف واحد من المندفعين وبادله الحديث. لم يلتفت إليه احد. في الميدان حركة النمل تتعارض وتتحاذي وتضرب في كل اتجاه. قادته قدماه إلى المقام، فوجده ساكنا على غير عادته. الشيخ درديري واقف مطاطئ الراس ,كانما هو متعب او تسلط عليه خوف ورهبة. دار إسماعيل حول المقام، حتى إذا جاء للسور الذي يفصل مكان النساء عن الرجال، انتبه إلى شبح واقف وراءه. هي فتاته السمراء الصقت جبينها على السور. سمَر إسماعيل في مكانه وسمعها تقول هامسة :

-يا ام هاشم: يا ستارة على الولايا، لا تغضي عينيك ولا تشيحي بوجهك. تمد إليك يد مسترحمة فخذيها. إن الله طهرك وصانك وانزلك الروضة. وإن قلبك لرؤوف. إذا لم يقصدك المرضى والمهزومون والمحطمون، فمن غيرك يقصدون؟ إذا نسينا فاذكري انت! متى يَمحى المقدر علي؟ ايرضيك ان جسدي ليس مني، فما اشعر بالالم وهو ينهشه نهشا، ها هي روحي على عتباتك تتلوى وتتمرغ مصروعة. تريد ان تفيق، منذ غادرني رضا الله وانا كالنائم يركبه الكابوس، يقبض في يد واحدة على الموت والحياة! رضيت لحكمه واسلمت نفسي، ولن اضيع وانت هنا معنا. افيطول الامد، ام رحمة الله قريب؟ نذرت لك يوم يتوب المولى عليّ ان ازين مقامك الطاهر بالشموع. خمسين شمعة، يا ام هاشم يا اخت الحسين !

ووضعت الفتاة شفتيها على سور المقام. ليست هذه القبلة من تجارتها، بل من قلبها. ومن ذا الذي يجزم بان ام هاشم لم تسع إلى السور وقد هيات شفتيها من ورائه لتبادلها قبلة بقبلة ?

هم إسماعيل ان يخرج من المسجد ليلحقها ويكلمها، فلم تتحرك قدماه. اراد ان يفضي لها بكل ما

في نفسه، إن لحظة الانتزاع من الاسرة والوطن ,لمواجهة الغربة والوحدة والمجهول تضني اعصابه وتهصر قلبه، لماذا يهتز لمراها دون سائر النساء؟ اواهم هو؟ إلا ان صوتا خفيًا يريد ان ينطق في قلبه ويتكلم ويرشده إلى السر، ولكن هناك الف غطاء وغطاء تكتم هذا الصوت وتخفته، ولعل الفتاة لم تره ولم تشعر به. وهرب إسماعيل من حيرته إلى الشيخ درديري وحديثه الثرثار ينزل بلسمًا على فؤاده. وقفته في صمت امام المقام وتحت ضوء القنديل، ويده معلقة بالسور تارة، ماسحة على وجهه تارة اخرى، هي اخر ما يذكره عن رحيله من القاهرة. فكل ما حدث له بعد خروجه من المقام شمله من اخمص قدميه إلى راسه، كالتيار المندفع العنيف، يتارجح فيه ملقى القياد، مقلوب الوضع، فقد خلاله الزمن ترتيبه، والمرئيات اعتدالها، والاصوات صدقها وفروقها. وداع الاسرة، وما امره! في الدار وسط النحيب والبكاء، والمحطه، والقطار ثم الميناء وحركته والباخرة المجهولة وصفيرها. إني اتخيله صاعدًا سلم الباخرة شابًا عليه وقار الشيوخ، بطيء الحركة، غرير النظرة، اكرش، ساذجًا، كل ما فيه ينبئ انه قروي مستوحش في المدينة. اقسم لي عمي إسماعيل فيما بعد انه كان يحمل في امتعته قبقابًا، فقد سمع الشيخ رجب ان الوضوء في اوربا متعذر لاعتياد الناس لبس الاحذية في البيوت. كما وصف لي وهو يبتسم سراويله وطولها وعرضها وتكتها المحلاوي . وكان معه ايضًا سلة ملاى بالكعك و"المنين" من عمل امه وفاطمة النبوية .

وسافرت الباخرة .

6

ومرّت سبع سنوات، وعادت الباخرة .

من هذا الشاب الانيق السمهري القامة، المرفوع الراس، المتالق الوجه، الذي يهبط سلم الباخرة قفزًا؟ هو والله إسماعيل بعينه. استغفر الله! هو الدكتور إسماعيل، المتخصص في طب العيون، والذي شهدت له جامعات إنجلترا بالتفوق النادر، والبراعة الفذة. كان استاذه يمزح معه ويقول له :

-اراهن ان روح طبيب كاهن من الفراعنة قد تقمصت فيك يا مستر إسماعيل. إن بلادك في حاجة إليك، فهي بلد العميان .

راى فيه دراية كأنها ملهمة، وصفاء هو سليل نضج اجيال طويلة، ورشاقة اصابع هي وريثة الايدي التي نحتت من الحجر الصلد دمًى تكاد تحيا .

اقبل يا إسماعيل، فإنا إليك مشتاقون .لم نرك منذ سبع سنوات مرت كانها دهور. كانت رسائلك المتوالية، ثم المتراخية، لا تنفع في إرواء غلتنا. اقبل إلينا قدوم العافية والغيث، وخذ مكانك في الاسرة ,فستراها كالالة وقفت بل صدئت لان محركها قد انتزع منها. اه! كم بذلت هذه الاسرة لك !فهل تدري ؟

لم ينم إسماعيل ليلة الوصول إلا غرارًا. قفز إلى ظهر الباخرة مع الفجر يريد الا يفوته اول ما يبدو من شاطئ الإسكندرية لا يرى شيئا على الافق ,ولكن خياشيمه تتشمم في النسيم رائحة لم يالفها من قبل، اول من لقيه من وطنه، مخلوق الكون كله وطنه، طائر ابيض منفرد يحوم حول السفينة، طليق متعال نظيف، وحيد. لماذا تتعمد البواخر كل هذا التلكؤ عند الوصول، وما كان اسرعها عند الفراق؟ إنها تتهادى بدلال العودة، فما لها وللركاب وما يشعرون! كتم إسماعيل عن اهله موعد الباخرة حتى لا يكلف اباه الشيخ مشقة السفر للإسكندرية. في عزمه ان يبرق إليهم بموعد وصول قطاره للقاهرة، هذا هو الفنار المتمنطق، وهذا هو الشاطئ الاصفر يكاد يكون في مستوى الماء .انت يا مصر راحة ممدودة إلى البحر لا تفخر إلا بانبساطها. ليس امامك حواجز من شعاب خائنة، ولا على شاطئك جبال تصد، انت دار كل ما فيها يوحي بالامان.. ها هو اول قارب يظهر، فيه شيخ قد وخط الشيب لحيته، مقوس الظهر، اقعى كالقرد في مقدم قاربه يصطاد، جلبابه الازرق، او الذي كان ازرق، ممزق مرقع. وقعت نظرة إسماعيل على سيدة مصرية وقفت بجواره، فراها مطلة على الصياد مغرورقة عيناها بالدموع وسمعها تتمتم :

-مصر! مصر !

كيف ينتبه لها الصياد، وهو لم ينتبه للباخرة كلها !?مثلها كثيرات داخلات خارجات تكاد تصدم قاربه، ولكن هيهات لها ان تصدم عالمه المقفل .عالم يجري على وتيرة واحدة متكررة يومًا بعد يوم. هم إسماعيل ان ينادي هذا الشيخ ويلقي عليه السلام او يلوح له بمنديل. كيف تسقط المقاييس وينهزم المنطق في مثل تلك اللحظات التي تتاجج فيها العواطف وتصفو القلوب! ورنّ جرس إيذانا بموت الباخرة ,فاصبحت جثتها فريسة لجيش من النمل البشري يهاجمها. جنود وضباط، وإخواننا

المحتلون ولو انهم اخلاط مطربشون، وحمالون وصيارفة وزوار. تم اندلق الزحام والتدافع، وتعالت النداءات، وكثر العناق والتقبيل. وإسماعيل وسط التيار غير مغمور يلتقط بنهم كل ما يصل إليه. وعلى شفتيه ابتسامة حلوة مطمئنة. له اذن فارزة واعية، ونظرة حية يقظة تريد ان ترى كل شيء، وتفهم كل شيء. إذا دققت النظر إليه وجدت تكورات وجهه قد زالت ,وشدّ شدقاه في اخدودين، كانت شفتاه مرتخيتين، قلما تنطبقان، اما الان فقد ضمهما عزم ووثوق. يجتاز الجمارك. وفي العربة يستمع لوقع عجلاتها بين الاسفلت والبلاط ,فيذكره تنافر النغم وتناوبه بيوم السفر. كم يبدو له هذا اليوم متردياً في هوة من ماض بعيد. بعيد كالحلم.... كيف تقوى ذكرى هذا اليوم على البقاء بعد سبع سنوات قضاها في إنجلترا قلبت حياته راساً على عقب؟ كان عفا فغوى، صاحياً فسكر، راقص الفتيات وفسق. هذا الهبوط يكافئه صعود لا يقل عنه جدة وطرافه. تعلم كيف يتذوق جمال الطبيعة ويتمتع بغروب الشمس كان لم يكن في وطنه غروب لا يقل عنه جمالا ويلتذ بلسعة برد الشمال .

إن لم يكن له في هذه الفترة سوى "ماري" زميلته في الدراسة لكفى بها في نسيان ماضيه. لقد اخذ هذا الفتى الشرقي الاسمر بلبها فاثرته واحتضنته. عندما وهبته نفسها، كانت هي التي فضّت براءته العذراء، اخرجته من الوخم والخمول إلى النشاط والوثوق، فتحت له افاقا يجهلها من الجمال: في الفن، في الموسيقى، في الطبيعة، بل في الروح الإنسانية ايضاً .

قال لها يوماً :

-ساستريح عندما اضع لحياتي برنامجاً اسير عليه .

فضحكت واجابت :

-يا عزيزي إسماعيل، الحياة ليست برنامجاً ثابتا، بل مجادلة متجددة .

يقول لها: "تعالي نجلس"، فتقول له: "قم نسِر". يكلمها عن الزواج، فتكلمه عن الحب. يحدثها عن المستقبل، فتحدثه عن حاضر اللحظة. كان من قبل يبحث دائمًا خارج نفسه عن شيء يتمسك به ويستند إليه: دينه وعبادته، وتربيته واصولها، هي منه مشجب يعلق عليه معطفه الثمين. اما هي، فكانت تقول له: "إن من يلجا إلى المشجب، يظل طول عمره اسيرًا بجانبه يحرس معطفه. يجب

ان يكون مشجبك في نفسك". إن اخشى ما تخشاه هي: القيود. واخشى ما يخشاه هو: الحريه. كانت هبتها له في مبدإ الامر محل حيرته، فكانت حيرته محل سخريتها. كان يتجافى الناس ويقدر احتمالات وَدهم، ويهتم كيف يكون حكمهم عليه, وإذا لقي من تريحه المجاملة لا يجد باسًا في مجاملته، وقلبه غير مشارك. التعارف عنده اصطدام بين الشخصيات يخرج منه ظافرًا او خاسرًا. اما هي، فتهيم بالناس جميعًا ,ولا تهتم بهم جميعًا. التعارف عندها لقاء، والودّ متروك للمستقبل، ومع تساوي وَدَها للناس جميعًا، كانت بتارة في إقصاء الضعيف، والسخيف، والمتعالم، والرذل , والحزين، والمنافق. فلما تخلصت من هذه الاوشاب، اصبحت لا ينجذب إليها إلا من تطمئن لصحبتهم .

راته يطيل جلسته بجانب الضعفاء من مرضاه، ويخصّ بعطفه من يلحظ فيه اثار تخريب الزمن للاعصاب والعقول وما اكثرهم في اوربا، يجلس صامتا ينصت لشكواهم. وكان اكبر كرم منه ان يماشي منطقه منطقهم المريض. لحظته "ماري" وحلقة المرضى والمهزومين تطبق عليه يتشبثون به. كل يطلبه لنفسه. فاقدمت وايقظته بعنف :

-انت لست المسيح بن مريم! "من طلب اخلاق الملائكة غلبته اخلاق البهائم "!و"الإحسان ان تبدا بنفسك". هؤلاء الناس غرقى يبحثون عن يد تمد إليهم، فإذا وجدوها اغرقوها معهم! إن هذه العواطف الشرقية مرذولة مكروهة؛ لانها غير عملية وغير منتجة, وإذا جردت من النفع، لم يبق إلا اتصافها بالضعف والهوان، إنما هذه العواطف قوتها في الكتمان لا في البوح !

كانت روحه تتاوه وتتلوى تحت ضربات معولها. كان يشعر بكلامها كالسكين يقطع من روابط حية يتغذي منها، إذ توصله بمن حوله. واستيقظ في يوم، فإذا روحه خراب لم يبق فيها حجر على حجر. بدا له الدين خرافة لم تخترع إلا لحكم الجماهير، والنفس البشرية لا تجد قوتها، ومن تم سعادتها، إلا إذا انفصلت عن الجموع وواجهتها. اما الاندماج فضعف ونقمة .

لم تقو اعصابه على تحمل هذا التيه الذي وجد نفسه غريقا وحيدًا في خلائه، فمرض وانقطع عن الدراسة، وافترسه نوع من القلق والحيرة، بل بدت في نظرته احيانا لمحات من الخوف والذعر .

وكانت" ماري" هي التي انقذته، اخذته في رحلة إلى الريف بإسكتلندة، يجولان بالنهار مشيًا او على الدراجة بين الحقول او يصطادان السمك، وبالليل تذيقه من متعة الحب اشكالا والوانا. من

حسن حظه انه استطاع ان يجتاز هذه المحنة التي يتردى فيها الكثيرون من مواطنيه الشباب في اوربا وخلص منها بنفس جديدة مستقرة ثابتة واثقة. إن اطرحت الاعتقاد في الدين فإنها استبدلت إيمانا اشد واقوى بالعلم. لا يفكر في جمال الجنة ونعيمها، بل في بهاء الطبيعة واسرارها. ولعل اكبر دليل على شفائه انه بدا يتخلص من سيطرة 'ماري" عليه. اصبح لا يجلس بين يديها جلسة المريد امام القطب، بل جلسة الزميل إلى زميله. لم يدهش، ولم يتالم كثيرًا، عندما راها تبتعد عنه وتتصرف إلى زميل من جنسها ولونها. إنها ككل فنان يمل عمله حين يتم. شفي إسماعيل ففقد كل سحره، واصبح كغيره ممن تعرفهم، فلتجرب إذا صديقها الجديد. على ان إسماعيل لم يقو على مغادرة إنجلترا دون ان يسعى إلى لقائها لاخر مرة. دعاها فلم ترفض وجاءته. ولم يسال نفسه : اعلى عِلمٍ من صديقها الجديد، ام على غفلة منه؟ ووهبت له نفسها مرة اخرى، فهذه العلاقة ليست عندها بذات بال ولا خطر. كانت ضمتها له نوعًا من المصافحة وسلام الوداع ,

وهتفت به وهي تنصرف على دراجتها :

-امل ان اراك في مصر يومًا من الايام، ومن يدري؟ فإلى اللقاء إذا، ولا اقول وداعًا .

نساء العصر الحديث! كم ذا يواجهن الاحتمالات بقلوب ثابتة. شجرة الحياة امامهن متقلة بالتمر منوّعته. لهن شهية مفتوحة فلم التاسي والبكاء على تمرة، والشجرة مفعمة؟

7

والظاهرة العجيبة التي لا استطيع تفسيرها ان إسماعيل افاق من حبه 'لماري" فوجد نفسه فريسة حب جديد. الان القلب لا يعيش خاليًا؟ ام ان 'ماري "هي التي نبهت غافلا في قلبه فاستيقظ وانتعش؟ كان إسماعيل لا يشعر بمصر إلا شعورًا مبهمًا، هو كذرة الرمل اندمجت في الرمال واندسّت بينها، فلا تمييز منها، ولو انها مع ذلك منفصلة عن كل ذرة اخرى. اما الان فقد بدا يشعر بنفسه كحلقة في سلسلة طويلة تشده وتربطه ربطا إلى وطنه. في ذهنه مصر عروس الغابة التي لمستها ساحرة خبيثة بعصاها فنامت. عليها الحلي، و"دواق" ليلة الدخلة. لا رعى الله عينا لم تر جمالها ,ولا انفا لا يشم عطرها! متى تستيقظ؟ متى؟ وكلما قوي حبه لمصر، زاد ضجره من المصريين. ولكنهم اهله وعشيرته، والذنب ليس ذنبهم. هم ضحية الجهل والفقر والمرض والظلم الطويل المزمن. إنه حدق في الموت مرارًا، وجس المجذوم، واقترب فمه من فم المحموم. ترى

هل ينكص الان عن لمس هذه الكتلة البشرية التي لحمه من لحمها ودمه من دمها؟ قد عاهد نفسه في حبه لمصر الا يرى منكرًا إلا دفعه. علمته "ماري" كيف يستقل بنفسه، وهيهات لهم بعد ذلك ان يجرعوه خرافاتهم واوهامهم وعاداتهم. ليس عبثًا ان عاش في اوربا وصلى معها للعلم ومنطقه. علم ان سيكون بينه وبين من يحتك بهم نضال طويل ,ولكن شبابه هوّن عليه القتال ومتاعبه. بل كان يتشوق إلى المعركة الاولى. وسرح ذهنه فإذا هو كاتب في الصحف او خطيب في احد المجتمعات يشرح للجمهور اراءه ومعتقداته .

وتحرك القطار بإسماعيل ولم يرسل برقيته، لا يدري لماذا ضعف عن لقائهم بالمحطة وسط الضجيج والضوضاء وعلى اعين الناس، وربكة المتاع. إنه يود ان يلقى اعزاءه في دارهم، وعلى نجوة من الغرباء. ولم يقدّر وقع المفاجاة على ابيه وامه العجوز. ذكرهما فوجف قلبه. هل يستطيع ان يؤدي لهما بعض ما هو مدين به؟ إنه قادم مزود بنفس السلاح الذي اراده له ابوه، وسيشق لنفسه بهذا السلاح طريقه إلى اول الصفوف. وسيعرض عن خدمة الحكومة ويفتح عيادة في ارقى احياء القاهرة. وسيدهش القاهريين اولا ثم المصريين جميعًا بما اتقنه من فن واكتسبه من خبرة. فإذا تدفق عليه المال اعفى اباه الشيخ من العمل، واشترى له ارضًا في بلدهم ليعيش مستريحًا. ثم وجم إسماعيل. لقد تذكر انه لم يات معه من اوربا بهدية لاسرته، وسَرّي عنه إذ قال لنفسه :

-ماذا في اوربا كلها يصلح لابي وامي ?

وفاطمة النبوية ?ذكراها تثير في نفسه بعض الاضطراب لم يزل مرتبطا بوعده، وقد عاد حرّا، فلا عذر له إذا اعتذر. هذه مسالة معقدة فلنتركها للمستقبل .

واطل من النافذة فراى امامه ريفا يجري كانما اكتسحته عاصفة من الرمل، فهو مهدم معفر متخرب. الباعة على المحطات في ثياب ممزقة، تلهث كالحيوان المطارد، وتتصبب عرقا .

ولما سارت العربة من المحطة، ودخلت شارع الخليج الضيق الذي لا يتسع لمرور الترام، كان ابشع ما يتصوره اهون مما راه: قذارة وذباب، وفقر وخراب، فانقبضت نفسه، وركبه الوجوم والاسى، وزاد لهيب الثورة في قرارة نفسه، وزاد التحفز .

ووقف امام البيت، وتناول مطرقته ,وتركها تسقط، فاختلطت دقتها بدقات قلبه. سمع صوتا رقيقا

ينادي بلهجة نساء القاهرة :

-مين ؟

-انا إسماعيل! افتحي يا فاطمة!

8-

يا إسماعيل. ما اقساك! وما اجهل الشباب !

كادت امه يغمى عليها , وانعقد لسانها وهي تضمه وتقبل وجهه ويديه، تشهق وتبكي. يا لله! كم شاخت وتهدلت وضعف صوتها وبصرها! إن الغائب في وهم، يتوقع ان يعود لاحبابه فيجدهم كما تركهم منذ سنوات. صوت يهمس في قلبه :

-ليست لها من الشخصية نصيب! ليست إلا كتلة من طيبة سلبية .

وجاءه ابوه تفيض عليه ابتسامة هادئة. اشتعل شيبه وإن لم تنحن قامته، في عينيه نظرة مشوبة من إعياء وصبر، من راحة ضمير وشعور بالحمل الثقيل .سيعلم إسماعيل فيما بعد ان الازمة كوته بنارها فانتكست اموره، ومع ذلك لم يتاخر في يوم ما عن موعد إيداع النقود بالبنك لابنه. لم يذكر لإسماعيل ما يعانيه او يدعوه إلي الاقتصاد او يستعجله للعودة. يلهو إسماعيل في إسكتلندة مع رفيقته، يأكل البفتيك، وابوه قعيد داره، عشاؤه طعمية او فجل .

لإسماعيل نظرة من طرف عينيه تطوف في الدار، فإذا هي اضيق واشدّ ظلمة مما كان يذكر .اما يزال ضوءهم من مصباح البترول؟ قطع الاثاث بالية متناثرة تبدو رغم مر السنين وطول الصحبة كأنها مهاجرة في دار غربة، ولماذا هم على البلاط؟ واين البساط ؟

هذه ام محمد ترتبك كعادتها بين الاطباق والحلل وهي تزغرد فيزجرها ويقول لها :

-بس بلاش خوتّه , يا وليه اعقلي .

ولكن اين فاطمة النبوية؟ اقبلت، فإذا امامه فتاة في شرخ الصبا. ضفيرتاها، واساورها الزجاجية الرخيصة، وحركاتها، وكل ما فيها وما عليها ,يصرخ بانها قروية من اعماق الريف. هل هذه هي الفتاة التي سيتزوجها؟ علم منذ اللحظة انه سيخون وعده وينكث عهده، وما لها معصوبة العينين؟ فهي ترفع ذقنها لتستطيع ان ترى وجهه. لم يدعها الرمد منذ سافر وساء حالها يومًا بعد يوم.

واعِد العشاء وجلسوا، ولعلهم جلسوا من اجله حول مائدة لهم من الخشب الابيض، لم ياكل عليها احد .لم ياكلوا هم من حدة الفرح، ولم ياكل هو من صدمة اليقظة. اعترف لي إسماعيل فيما بعد بأنه- حتى في اللحظة التي كان يجب ان تشغله سعادة العودة إلى احضان والديه عن القياس والمقارنة والنقد لم يملك نفسه عن التساؤل! كيف يستطيع ان يعيش بينهم !?وكيف يجد راحته في هذه الدار!?

واعد الفراش. وابي الشيخ رجب إلا الانصراف إلى غرفته ليترك ابنه يستريح من عناء السفر. وهذه امه تجذب نفسها جذبًا وتهم بتركه ,ولكنها تشير إلى فاطمة وتقول :

-تعالي يا فاطمة، قبل ان تنامي، اقطر لك في عينيك .

وراى إسماعيل امه وفي يدها زجاجة صغيرة، وترقد فاطمة على الارض وتضع راسها على ركبة الام، فتسكب من الزجاجة في عينيها سائلا تتاوه منه فاطمة وتتالم .

سالها إسماعيل :

-ما هذا يا امي?

-هذا زيت قنديل ام هاشم ,تعودت ان اقطر لها منه كل مساء .

لقد جاءنا به صديقك الشيخ درديري. إنه يذكرك ويتشوق إليك. هل تذكره؟ ام تراك نسيته ?

قفز إسماعيل من مكانه كالملسوع. اليس من العجيب انه وهو طبيب عيون يشاهد في اول ليلة من عودته، بأية وسيلة تداوى بعض العيون الرمداء في وطنه ?

تقدم إسماعيل إلى فاطمة فاوقفها ,وحل رباطها، وفحص عينيها، فوجد رمدًا قد اتلف الجفنين واضر بالمقلة، فلو وجد العلاج المهدئ المسكن لتماثلت للشفاء، ولكنها تسوء بالزيت الحار الكاوي ,

فصرخ في امه بصوت يكاد يمزق حلقه :

-حرام عليك الاذية. حرام عليك .انت مؤمنة تصلين، فكيف تقبلين امثال هذه الخرافات والاوهام ?

وصمتت امه وانعقد لسانها، تحاول ان تتمتم ولا تبين .

وراى إسماعيل شبح ابيه على الباب ,في جلباب ابيض قصير وعلى راسه طاقية تحتها وجه مربد. هل يتوقع قلبه الحنون مكروهًا ?ماذا؟ لعل في تصرفات إسماعيل وحركاته ونظراته ما ايقظ في نفسه منذ اللحظة الاولى بعض الريبة. ما هذا الصراخ؟ ماذا حدث ?

ونطقت امه اخيرًا تستعيذ بالله وتقول له :

-اسم الله عليك يا إسماعيل يا ابني. ربنا يكملك بعقلك هذا غير الدوا والاجزا. هذا ليس إلا من بركة ام هاشم .

وإسماعيل كثور هائج لوحت له بغلالة حمراء .

-اهي دي ام هاشم بتاعتكم هي اللي حتجيب للبنت العمى، سترون كيف اداويها فتنال على يديّ انا الشفاء الذي لم تجده عند الست ام هاشم .

-يا ابني ده ناس كثير بيتباركوا بزيت قنديل ام العواجز جربوه وربنا شفاهم عليه. إحنا طول عمرنا جاعلين تكالنا على الله وعلى ام هاشم. ده سرها باتع .

-انا لا اعرف ام هاشم ولا ام عفريت .

هبط على الدار صمت مقبض. في هذا البيت تعيش قراءة القران والاوراد، وصدى الاذان. كأنها جميعًا استيقظت وانتبهت، ثم اطرقت وانطفات، وحل محلها ظلام ورهبة. لا عيش لها مع هذه الروح الغريبة التي جاءت لهم من وراء البحار .

وسمع صوت ابيه كانما يصل إليه من مكان سحيق :

-ماذا تقول؟! هل هذا كل ما تعلمته في "بلاد بره"؟ كل ما كسبناه منك ان تعود إلينا كافرًا ?

كل ما فعله إسماعيل بعد ذلك يدل على ان المرض العصبي القديم قد عاوده فجاة ,وانفجر بشدة من جديد. فقد وعيه وشعر بحلقه يجف، وبصدره يشتعل، وبراسه يموج في عالم غير هذا العالم؛ شب على قدميه واقفا. لا شك ان في نظرته ما يخيف، فقد تضاءلت الام امامه، وابتعد الاب عن طريقه. هجم إسماعيل على امه يحاول ان ينتزع منها الزجاجة ,فتشبثت بها لحظة ثم تركتها له. فاخذها من يدها بشدة وعنف، وبحركة سريعة طوح بها من النافذة .

وكان صوت تحطمها في الطريق كدوي القنبلة الاولى في المعركة .

ووقف إسماعيل حائرًا لحظة، له نظرة تجوب ما حوله وتنتقل من وجه امه وفاطمة إلى وجه ابيه. وجد إشفاقا وعطفا ولم يجد تسامحًا وفهمًا. ربما استشف في نظرتهم بعض الرعب، فتزايد هياجًا وانطلق إلى الباب. وفي طريقه وجد عصا ابيه فاخذها ثم هرب من الدار جريًا. لن ينكص عن ان يطعن الجهل والخرافة في الصميم طعنة نجلاء ولو فقد روحه .

9

اشرف على الميدان، فإذا به يموج كدابه بخلق غفير ضربت عليهم المسكنة، وثقلت باقدامهم قيود الذل. ليست هذه كائنات حية تعيش في عصر تحرك فيه الجماد. هذه الجموع اثار خاوية محطمة كاعقاب الاعمدة الخربة، ليس لها ما تفعله إلا ان تعثر بها اقدام السائر. ما هذا الصخب الحيواني؟ وما هذا الاكل الوضيع الذي تلتهمه الافواه؟ يتطلع إلى الوجوه فلا يرى إلا اثار استغراق في النوم كانهم جميعًا صرعى افيون. لم ينطق له وجه واحد بمعنى إنساني. هؤلاء المصريون: جنس سمج ثرثار اقرع امرد، عار حاف، بوله دم، وبرازه ديدان. يتلقى الصفعة على قفاه الطويل بابتسامة

ذليلة تطفح على وجهه. ومصر؟ قطعة "مبرطشة" من الطين اسنت في الصحراء، تطن عليها اسراب من الذباب والبعوض، ويغوص فيها إلى قوائمه قطيع من الجاموس نحيل. يزدحم الميدان ببائعي اللب والفول، وحب العزيز ، ونبوت الغفير ، والهريسة والسمبوسكة , بمليم الواحدة. في جنباته مقاه كثيرة على الرصيف بجوار الجدران، قوامها موقد وإبريق وجوزة . اجساد لم تعرف الماء سنين. الصابون عندها والعنقاء سواء. تمر امامه فتاة مزججة الحواجب، مكحلة العينين، شدت ملاءتها لتبرز عجيزتها وطرف ثوبها، وتحجبت ببرقع يكشف عن وجهها. وما معنى هذه القصبة التي تضعها على انفها؟ اف! ما ابشع رياء هذا المنظر وما اقبحه! سرعان ما بدا الناس يتحككون بها كانهم كلاب لم يروا في حياتهم انثى! هنا جمود يقتل كل تقدم وعدم لا معنى فيه للزمن، وخيالات المخدر، واحلام النائم والشمس طالعة .

لو استطاع إسماعيل لامسك بذراع كل واحد منهم وهزه هزة عنيفة وهو يقول :

-استيقظ. استيقظ من سباتك وافِق، وافتح عينيك. ما هذا الجدل في غير طائل؟ والشقشقة والمهاترة في سفاسف؟ تعيشون في الخرافات، وتؤمنون بالاوثان، وتحجّون للقبور وتلوذون باموات !

وعثرت قدمه بطفل ملقى على الرصيف، والتف حوله جموع من الشحاذين يعرضون عليه عاهات يرتزقون منها رزقا حلالا .كانها من نعم الله عليهم، او مِهن وصناعات .

وشعر إسماعيل بان هذه الجموع اشلاء ميتة تطبق على صدره وتكتم انفاسه، وتبهظ اعصابه. يصطدم به بعض المارة كانهم عَمّي يتخبطون. هذا الرضا عجز، وهذه الطيبة بلاهة، وهذا الصبر جبن، وهذا المرح انحلال .

انفلت إسماعيل من الزحام، وجرى إلى الجامع ودخله واجتاز الصحن إلى الحرم. المقام يتنفس بدل الهواء ابخرة ثقيلة من عطور البرابرة. هذا هو القنديل قد علق التراب بزجاجه واسودّت سلسلته من "هبابه". تفوح منه رائحة احتراق خانقة. اكثر ما ينبعث منه دخان لا بصيص ضوء. هذا الشعاع إعلان قائم للخرافة والجهل .يحوم في سقف المقام خفاش اقشعر له بدنه. حول المقام اناس كالخشب المسندة وقفوا مشلولين متشبثين بالاسوار. فيهم رجل يستجدي صاحبة المقام شيئا لم يفهمه إسماعيل وإنما وعى انه يستعديها على خصم له، ويسالها ان تخرب بيته وتيتم اطفاله.

والتفت إسماعيل إلى ركن في المقام فوجد الشيخ درديري يناول رجلا معصوب الراس بمنديل نسائي زجاجة صغيرة في حرص وتستر. كانما هي بعض المهربات. لم يملك إسماعيل نفسه. فقد وعيه ,وشعر بطنين اجراس عديدة، وزاغ بصره، ثم شب، واهوى بعصاه على القنديل فحطمه وتناثر زجاجه، وهو يصرخ :

-انا... انا... انا ..

ثم لم يستطع ان يتم جملته) .ومن يدري ماذا كان سيقول؟) هجمت عليه الجموع، وتهدمت فوقه، فخرّ على الارض مغمى عليه. ضربوه، وداسوه بالاقدام، وجرح راسه، وسال الدم على وجهه، ومزقت ثيابه .

علمنا بعد ذلك انه اشرف على الموت تحت الاقدام لولا ان تعرف عليه الشيخ درديري، فأنقذه واستخلصه من غضب الناس وعنفهم، وهو يقول :

-اتركوه! إنني اعرفه. هذا سي إسماعيل ابن الشيخ رجب من حتتنا . اتركوه. الا ترون انه "مريوح .!? "

واحتمله إلى الدار، ووضعوه على الفراش، واجتمعت الاسرة في ليلة الفرح بعودته تبكي صوابه المفقود .

لعن الله اليوم الذي سافرت فيه يا إسماعيل !ليتك ظللت بيننا ولم تفسدك اوربا فتفقد صوابك، وتهين اهلك ووطنك ودينك .

صكت الام وجهها، وتاوه الاب وكتم المه وغيظه وسكبت فاطمة دموعها مدرارًا .

10

ومرت ايام كثيرة وإسماعيل لا يغادر الفراش. ركبه العناد فادار وجهه للجدار لا يكلم احدًا ولا يطلب شيئا. ولما افاق قليلا بدا يفكر: هل يعود إلى اوربا ليعيش وسط اناس يفهمون الحياة؟ إن الجامعة عرضت عليه منصب مساعد استاذ فرفضه بغباوة، ولعلهم يقبلونه الان إذا طلب. ولم لا

يتزوج هناك، ويبني لنفسه اسرة جديدة بعيدًا عن هذا الوطن المنكود؟ لماذا ترك إنجلترا بريفها الجميل، وامسياتها الهنية ,وقسوة شتائها الجبار، وجاء لبلد يفرون فيه من بعض الرذاذ كانما تحيق بهم نكبة او يدهمهم طوفان؟ اما يدرون ان هناك وجوهًا صامتة ونظرة ثابتة، تسير تحت المطر والثلوج، تقاوم الاعاصير؟ وما فائدة الجهاد في بلد كمصر ومع شعب كالمصريين ,

عاشوا في الذل قرونا طويلة فتذاوقوه واستعذبوه ?

ثم اخذته غفوة ,واختلط عليه الامر. إنه كالطير قد وقع في فخ، وادخلوه القفص، فهل له من مخرج؟ يشعر بجسمه وقد شد إلى هذه الدار التي لا يطيقها، وربط إلى هذا الميدان الذي يكرهه , فمهما حاول فلن يستطيع فكاكا .

واستيقظ إسماعيل ذات صباح وهو يشعر بنشاط عجيب. في مثل هذه الاحوال يقفز الشخص من النقيض إلى النقيض فجاة وبلا سبب ظاهر .وخرج من الدار مبكرًا، وعاد يحمل حقيبة، ملاى بالزجاجات والاربطة والمراود، وبدا علاجه لفاطمة كما يقتضيه طبه وعلمه. لقد عالج في اوربا اكثر من مائة حالة مثلها فلم يخنه التوفيق في واحدة. فلماذا لا ينجح مع فاطمة ايضًا؟ وسلمت الفتاة إليه نفسها مطمئنة، لا يهمها مرضها بقدر ما يهمها ان تكون بين يديه، موضع عنايته ورفقه. وتجنبه ابوه وامه ولم يعودا يعارضانه في شيء إشفاقا على صحته .

في الصباح تجلس فاطمة بين يديه وقبل النوم. ومر يوم وثان وثالث ورابع، واسبوع واخر، وعيون فاطمة على حالها. ثم إذا بها تسوء فجاة وتلتهب، ويختلط سوادها بالبياض .

ضاعف إسماعيل عنايته، وكرر انواع الادوية، وقلب جفونها ومسّ، وقطر ومرهم، وكشط ومسح، فما اجدى طبه نفعًا. إنه ليس بالجاهل، يرى امامه فاطمة اقتربت من العمى ولا ينقذها في علمه حيلة .

اخذها إلى زملائه في كلية الطب، وعرضها على الاساتذة فوافقوه على طريقته في العلاج، ونصحوه بالاستمرار .

فقاوم وثابر، واخيرًا استيقظت فاطمة على صباح وهي تفتح عينيها ولا ترى. لقد انطفا اخر

جميع الحقوق محفوظة
مدونة عصير الكتب

عصير الكتب

www.bookmust.blogspot.com

بصيص تتعزّى به .

11

هرب إسماعيل من الدار، لم يستطع الإقامة فيها وفاطمة امامه وعماها دليل على عماه. عيون ابيه وامه تلومانه. ما الذي حدث؟ لماذا اخفق؟ إنه لا يفهم شيئا. اين يذهب؟ لم يبدا بعد عملا، ولا هو بقادر ولا راغب في الالتجاء للحكومة لتعيينه في إحدى القرى النائية. باع كتبه وبعض الادوات التي احضرها معه من اوربا، وسكن في غرفة ضيقة في بنسيون مدام إفتاليا، وهي سيدة يونانية بدينة اخذت تستغله منذ اول وقوعه في يدها حتى لتكاد تضع في كشف الحساب تحية الصباح، او تستقضيه خطوتها إذا قامت وفتحت له الباب. حاسبته مرة على قطعة سكر استزادها في إفطار. يحس بابتسامتها اصابع تفتش جيوبه. اهداها بعض الفطائر والسجائر فاخذتها نهمة متلهفة ,وفي الصباح سالته الا يطيل السهر في غرفته حرصاَ على الكهرباء. لا شك في ان الإفرنج في مصر من طينة اخرى غير التي راها في اوربا. كان يحبس نفسه في غرفته، فطردته هذه المعاملة إلى الشوارع يجوبها من الصباح إلى منتصف الليل. وفي كل ليلة يجد نفسه - ولا يدري كيف - وسط ميدان السيدة يجوب حول داره، يتطلع إلى نوافذها، يريد ان يرى وجه فاطمة او يسمع صوتها. فاطمة ضحيته، ومع ذلك لم تتر... لم تشك... لم تلمه. اسلمت إليه نفسها عن رضا فاوردها التلف، فما قالت لذابحها تريث. وهكذا يظل واقفا في الميدان، ساعات طويلة، سارح الذهن شارد اللب، تتسرب إلى اذنه النداءات القديمة. هي هي لم تتغير، ماذا؟ لعل كل والد اورث ابنه مهنته وصوته وموضعه في الميدان: مساكين !كل من خدمهم منّ عليهم واستعجلهم الجزاء اضعافا مضاعفة. لم يخدمهم احد لله او حبّا فيهم، ومع ذلك جروا وراء كل من توهموا فيه الإخلاص وتشبثوا باذياله، ورفضوا ان يروا ضعفه او خيانته. هذا شعب شاخ فارتد إلى طفولته. لو وجد من يقوده لقفز إلى الرجولة من جديد في خطوة واحدة، فالطريق عنده معهود والمجد قديم، والذكريات باقية .

تساءل إسماعيل: هل في اوربا كلها ميدان كالسيدة زينب؟ هناك ابنية ضخمة جميلة، وفن راق، واناس وحيدون فرادى، وقتال بالاظافر والانياب، وطعن من الخلف واستغلال بكل الوسائل. مكان الشفقة والمحبة عندهم بعد العمل وانتهاء النهار، يروحون بهما عن انفسهم كما يروحون عنها بالسينما والتياترو .

ولكن. لا. لا. لو اسلم نفسه لهذا المنطق لانكر عقله وعلمه. من يستطيع ان ينكر حضارة اوروبا وتقدمها، وذل الشرق وجهله ومرضه؟ لقد حكم التاريخ ولا مردّ لحكمه، ولا سبيل إلى ان ننكر اننا شجرة اينعت واثمرت زمنا، ثم ذوت .

يفر إسماعيل من الميدان إلى غرفته، ويقضي ليلته يفكر كيف يهرب لاوربا من جديد، ولكنه لا يلبث ان يعود إلى موقفه المعهود بميدان السيدة في مساء الليلة التالية .

12

وجاء رمضان، فما خطر له ان يصوم. ابتدا يطيل وقفته في الميدان ويتدبر: في الجو، في الهواء، في المخلوقات ,في الجمادات كلها شيء جديد لم يكن فيها من قبل. كان الوجود خلع ثوبه القديم واكتسى جديدًا. علا الكون جو هدنة بعد قتال عنيف .

يحدث إسماعيل نفسه: لماذا خاب ?لقد عاد من اوربا بجعبة كبيرة محشوة بالعلم، عندما يتطلع فيها الان يجدها فارغة ,ليس لديها على سؤاله جواب. هي امامه خرساء ضئيلة، ومع خفتها فقد راها ثقلت في يده فجاة .

ودار بعينيه في الميدان. وتريثت نظرته على الجموع فاحتملتها، وابتدا يبتسم لبعض النكات والضحكات التي تصل إلى سمعه فتذكره هي والنداءات التي يسمعها بايام صباه. ما يظن ان هناك شعبًا كالمصريين حافظ على طابعه وميزته رغم تقلب الحوادث وتغير الحاكمين. "ابن البلد" يمر امامه كانه خارج من صفحات "الجبرتي ."اطمانت نفس إسماعيل وهو يشعر بان تحت اقدامه ارضًا صلبة. ليس امامه جموع من اشخاص فرادى، بل شعب يربطه رباط واحد: هو نوع من الإيمان، ثمرة مصاحبة الزمان والنضج الطويل على ناره. وعندئذ بدات تنطق له الوجوه من جديد بمعان لم يكن يراها من قبل .هنا وصول فيه طمانينة وسكينة والسلاح مغمد. وهناك نشاط في قلق وحيرة، وجلاد لا يزال على اشده والسلاح مسنون. ولم المقارنة؟ إن المحب لا يقيس ولا يقارن وإذا دخلت المقارنة من الباب، ولى الحب من النافذة .

وحلت ليلة القدر. فانتبه لها إسماعيل، ففي قلبه لذكراها حنين غريب. ربي على إجلالها والإيمان بفضائلها، ومنزلتها بين الليالي، لا يشعر في ليلة اخرى حتى ولا ليالي العيد بمثل ما يشعر

به من خشوع وقنوت لله. هي في ذهنه غرة بيضاء وسط سواد الليالي. كم من مرة رفع فيها بصره إلى السماء فبهره من النجوم جمال لا يراها تنطق به بقية العام .

وغاب لحظة عن افكاره، فإذا به ينتبه على صوت شهيق وزفير عميقين يجوبان الميدان. هذا هو سيدي العتريس ولا ريب رفع بصره. القبّة في غمرة من ضوء يتارجح يطوف بها. انتفض إسماعيل من راسه إلى اخمص قدميه. اين انت ايها النور الذي غبت عني دهرًا؟ مرحبًا بك! لقد زالت الغشاوة التي كانت ترين على قلبي وعيني. وفهمت الان ما كان خافيًا عليّ. لا علم بلا إيمان. إنها لم تكن تؤمن بي، إنما إيمانها ببركتك انت وكرمك ومنك ببركتك انت يا ام هاشم .

ودخل إسماعيل المقام مطاطئ الراس فابصره يرقص عليه ضوء خمسين شمعة زينت جوانبه، والشيخ درديري يتناولها واحدة واحدة من فتاة طويلة القامة سمراء اللون، جعدة الشعر. هي نعيمة! قد زال انطباق شفتيها وبدت لها اسنان وإن تكلمت فصف من اسنان بيض كاللؤلؤ. تكفي النظرة إليها ان تنسي وجود كل قبيح .

لقد صبرت وامنت، فتاب الله عليها، وجاءت توفي بنذرها بعد سبع سنوات. لم تقنط، ولم تتر، ولم تفقد الامل في كرم الله .

اما هو الشاب المتعلم، الذكي المثقف فقد تكبر وثار وتهجم وهجم، وتعالى فسقط .

ورفع إسماعيل بصره، فإذا القنديل في مكانه يضيء كالعين المطمئنة التي رات، وادركت، واستقرت. خيل إليه ان القنديل. وهو يضيء، يومئ إليه ويبتسم .

وجاءه الشيخ درديري يساله عن صحته واخباره، فيميل عليه إسماعيل يقول :

-هذه ليلة مباركة يا شيخ درديري، اعطني شيئا من زيت القنديل .

-والله انت بختك كويس. دي ليلة القدر؟ وليلة الحضرة كمان .

وخرج إسماعيل من الجامع وبيده الزجاجة وهو يقول في نفسه للميدان واهله :

-تعالوا جميعًا إليّ! فيكم من اذاني، ومن كذب عليّ، ومن غشني ,ولكني رغم هذا لا يزال في قلبي مكان لقذارتكم وجهلكم وانحطاطكم، فانتم مني وانا منكم. انا ابن هذا الحي .. انا ابن هذا الميدان. لقد جار عليكم الزمان، وكلما جار واستبد، كان إعزازي لكم اقوى واشد .

ودخل الدار ونادى فاطمة :

-تعالى يا فاطمة! لا تياسي من الشفاء. لقد جئتك ببركة ام هاشم! ستجلي عنك الداء ,وتزيح الاذى، وترد إليك بصرك فإذا هو حديد ...

وشدّ ضفيرتها واستمر يقول :

-وفوق ذلك، ساعلمك كيف تاكلين وتشربين، وكيف تجلسين وتلبسين، ساجعلك من بني ادم .

وعاد من جديد إلى علمه وطبه يسنده الإيمان. لم يياس عندما وجد الداء متشبثا قديمًا، يجادله بعناد ولا يتزحزح. ثابر واستمر ولاحت بارقة الامل ,ففاطمة تتقدم للشفاء على يديه يومًا بعد يوم، وإذا بها تكسب في اخر العلاج ما تاخرته في مبدئه، فهي تقفز ادواره الاخيرة قفزًا .

ولما راها ذات يوم امامه سليمة في عافية، فتش في ذهنه وقلبه عن الدهشة التي كان يخشاها، فلم يجدها .

13

وافتتح إسماعيل عيادته في حي البغالة بجوار التلال، في منزل يصلح لكل شيء إلا لاستقبال مرضى العيون. الزيارة بقرش واحد لا يزيد. ليس من زبائنه متانقون ومتانقات، بل كلهم فقراء، حفاة وحافيات، والغريب ان شهرته استقرت في القرى المجاورة للقاهرة دون القاهرة ذاتها، فاكتظت داره بالفلاحين والفلاحات، يجيئون بهدايا من البيض والعسل والبط والدجاج .

كم من عملية شاقة نجحت على يديه ,بوسائل لو راها طبيب اوربا لشهق عجبًا. استمسك من علمه بروحه واساسه، وترك المبالغة في الالات والوسائل. اعتمد على الله، ثم على علمه ويديه، فبارك الله في علمه ويديه .ما ابتغى الثروة ولا بناء العمارات وشراء الاطيان ، وإنما قصد ان ينال

مرضاه الفقراء شفاءهم على يديه .

وتزوج إسماعيل فاطمة، وانسلها خمسة بنين وست بنات .

وكان في اخر ايامه ضخم الجثة، اكرش، اكولا نهما، كثير الضحك والمزاح والمرح، ملابسه مهملة، تتبعثر على اكمامه وبنطلونه اثار رماد سجائره التي لا ينفك يشعل جديدة من منتهية. واصيب بالربو، فاحتقن وجهه وتندى العرق على جبينه، وانقلب تنفسه إلى نوع من الموسيقى. واصبح من يشاهده لا يدري اهو متعب ام مستريح. فلما احتبست ضحكاته في حلقه، اجتمعت في عينيه، فليس هناك عيون اقوى على التعبير من عيون المصدورين يكاد يقفز منها إليك شيطان لعوب، كلها حب وفهم، فيها خبث وطيبه، وتسامح وإعزاز، وكانها تقول لك قبل كل شيء :

-ليس كل ما في الوجود انا وانت، هناك جمال واسرار ومتعة وبهاء. السعيد من احسها، فعليك بها عليك ...

إلى الان يذكره اهل حي السيدة بالجميل والخير، ثم يسالون الله له المغفرة. مم؟ لم يفضِ إليّ احد بشيء، وذلك من فرط إعزازهم له. غير انني فهمت من اللحظات والابتسامات ان عمي ظل عمره يحب النساء، كان حبه لهن مظهر من تفانيه وحبه للناس جميعًا .

رحمه الله

[1939 - 1940]

تم التحميل من عصير الكتب

WWW.bookmust.blogspot.COM

جميع الحقوق محفوظة
مدونة عصير الكتب

عصير الكتب

www.bookmust.blogspot.com